فيه بنظرةٍ فاحصةٍ تدرك لأول وهلةٍ كيف طهيت كل صفحة، وكيف أعدت كل طبخة، وكيف لُوحِظت النظافة في التحضير والغسل والتجفيف.

وحان وقت المائدة فقدم لها «الديك» قائلًا: هذا اعترافٌ بفضل الديك في تعارفنا، وتمهيد محادثتنا الأولى.

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهافتة: لا أحب يا صاحبي أن تعرف لي فضلًا على هذه الطريقة!

فطرب للنكتة ووجم في وقتٍ واحدٍ، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحترس بعض الاحتراس، ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه إلا أن ينقذ نفسه وهو يردد في شيء من التلعثم: إن كنتِ لا تأبين أن أمزجكِ بدمي ولحمي وأن أجعلكِ جزءًا مني فالطريقة لا تهم، وأنتِ أكلة شهية تطيب لي بغير حاجةٍ إلى السكاكين والقدور!

وكان حديثها على المائدة — وقد استغرقت ساعتين — على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ما تكون أحاديث الموائد.

لاحظتْ أنه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين، فقالت: كان من حقنا أن نتزوج، فنحن زوجان طبيعيان، أنتَ لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره، فلا يشجر بيننا نزاع.

قال عفو الخاطر غير عامدٍ لما يقول: هذا مذهب شوبنهور منقولًا إلى المطبخ!

وأحس أنه أقحم شوبنهور في غير مقحمٍ؛ أَعَلى المائدة ومع فتاةٍ يُدَار ذكر الفيلسوف المتشائم عدو النساء؟!

وإنه لَيَهُم بتوبيخ لسانه والتراجع إلى موضوعٍ غير هذا الموضوع الذي أثاره، وإنه ليريد أن يأخذ عليها سبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شوبنهور إذا هي تلاحقة قائلةً: نعم، القصير يطلب الطويلة، والأبيض يطلب السمراء، والبدين يطلب النحيفة، ومَن يأكل جناح الدجاجة يطلب مَن لا تأكل الجناح … هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف.

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها إلى «محل الشاهد» — كما يقولون — أضعاف ما راعته نكاتها، ولمحت هي دهشته فاستطردت تقول: على رسلك، لا تخف ولا تعجل، فلستُ بحمد الله فيلسوفة، وما قرأتُ شوبنهور إلا لأن «أحدًا» أرادني على قراءته، ولأن تفهيمه إياي كان ذريعة اللقاء بيننا، وما كان بالجائز أن يحضر إليَّ ليفهمني رواية أو مقالة ممتعة … فلم يعد لنا بد من الفلسفة وأمرنا إلى الله! فأغرب همام في الضحك؛ لأنه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العَبُوس وعينيه الظريفتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به، وسَخَّرت فلسفته لغرامها.